الاهتمام بمصادر التراث العربى

الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف *

ما قيمة تراثنا العربى الآن ؟ ! سؤال يلح على دائما وأنا أحاضر بين طلابى عن حضارتنا العربية العظيمة ، تلك الحضارة التى غذت أوربا علما وأدبا وفنا وبعدها تقدمت الحضارة الغربية هذا التقدم الرائع الذى نلمسه الآن فى كافة ميادين العلم والأدب والفن .

هل حضارتنا العربية الإسلامية أصبحت تراثا فقط ؟! أم أنها حضارة غير منقطعة ؟ ! هل سنكتفى بالقول بأننا كنا وكنا ؟! أم أن دراسة أصول حضارتنا والرجوع إليها والإفادة منها يساعد على نهضة عربية معاصرة عظيمة ؟!

لقد اهتم المستشرقون فى أوربا بتراثنا وحضارتنا العربية الإسلامية اهتماما كبيراً فأقبلوا على دراستها وعلى دراسة فضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية . ومنذ بزوغ النهضة الأوربية قامت المعاهد والمدارس فى أوربا للتخصص فى اللغات الشرقية والدراسات الشرقية . وعنى المستشرقون بالبحث عن المخطوطات العربية والإسلامية وبنشرها ودراستها . ولم ينته اهتمام الغرب بحضارتنا عند هذا الحد إذ قامت منذ أوائل القرن التاسع عشر فى أوربا الجمعيات الآسيوية والجمعيات التاريخية ، ونشر الأساتذة أعضاء هذه الجمعيات كثيراً من البحوث القيمة والمخطوطات الإسلامية . ثم قامت منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر سلسلة من المؤتمرات الدولية قوامها المستشرقون ،

(*) أستاذة التاريخ الإسلامى ورئيسة قسم التاريخ – كلية البنات – جامعة عين شمس .

وتمخضت هذه المؤتمرات عن أبحاث ومؤلفات قيمة للعلوم الشرقية على اختلاف أنواعها ، كما ظهرت دائرة المعارف الإسلامية باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية .

وسرعان ما انتقل الاهتمام بحضارة الشرق وتراث الإسلام إلى جامعات أمريكا ومعاهدها وبيئاتها الثقافية .

واهتمت أمريكا اهتماما خاصا بدراسة الثقافة الحديثة للعالم الإسلامى ، وبمعرفة أثر التراث الإسلامى القديم فى حياة الأمم العربية الإسلامية المعاصرة ، وكيف توفق تلك الأمم بين العقيدة الإسلامية وحضارة الإسلام وتراثه ، وبين الحياة العلمية المدنية الحاضرة ، ثم مدى تأثير حضارة الغرب الآن على الأمم الإسلامية .

ولاننكر أننا — نحن العلماء والمؤرخين — فى الشرق أخذنا عن المستشرقين والعلماء الغربيين المنهج العلمى لكتابة التاريخ ، وأفدنا فائدة عظيمة من دراسات المستشرقين للحضارة الإسلامية وأثر تلك الحضارة على حضارة الغرب ، وأفدنا من المجهودات العلمية المتنوعة لإعلام المستشرقين وتلاميذهم . لكن أصول ومصادر تراثنا العربى الإسلامى متنوعة وغزيرة فلم يأت المستشرقون والعلماء الغربيون على كل شىء . وبقى علينا — نحن العرب — أن نقدم لوطننا العربى أصول تراثنا الإسلامى وحضارته وأن نقدم الدراسات العلمية التى تقوم على أساس هذه المصادر والأصول ، وأن ندرس ما تستطيع تلك الحضارة أن تؤديه لحياتنا المعاصرة فى كافة نواحى العلوم والحياة حتى يمكن لوطننا العربى الوقوف والصمود والتحرير والنهضة .

ومما لاشك فيه أن العلماء والمفكرين المعاصرين فى وطننا العربى الكبير قد يختلفون فيما بينهم اختلافا بسيطا أوعميقا ، وذلك بقدر التفاوت فى تفهمنا لأصول حضارتنا وتفهمنا لأصول الإسلام وأهدافه وتشريعاته ، وصلة الدين بالحياة وبالحضارة المعاصرة .

ولنذكر أن العرب حين خرجوا من شبه جزيرتهم فى ظل الإسلام ، وحين سيطروا على معظم العالم المتمدين فى الشرق القديم ، لم يحملوا معهم غير دينهم ولغتهم وأدبهم وسموهم الخلقى والروحى ، لكنهم سرعان ما أقاموا حضارة عربية إسلامية تميزت عن الحضارات السابقة ، والحضارات اللاحقة. ولنذكر أيضاً أنّ العرب أخذوا عن حضارات الأمم السابقة ، كما ترجموا الكثير من كتب العلم والفلسفة القديمة ، لكن سرعان ما بنوا هم بناءهم الشامخ ، ولم تكن حضارتهم اقتباسا ونقلا وترجمة كما يذهب إلى القول بذلك بعض المستشرقين جهلا أو تعصبا .

كذلك أثبت العرب أن اللغة العربية — لغة القرآن — لغة حية علمية عالمية فألفوا بها وكتبوا بها فى مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب والفلسفة . واستوعبت اللغة العربية الحضارة الإسلامية العظيمة ، وأثبتت قدرتها على التعبير العلمى فاشتقت ألفاظا من اللغات الأخرى ، كما أنها أكسبت ألفاظها معانى جديدة .

وترك لنا العرب تراثا هائلا وفيراً فى كل أنواع العلوم والفنون والآداب باللغة العربية .

والحقيقة التاريخية التى لاتغيب عن أذهاننا منذ أقدم العصور أن جميع الأمم المتحضرة المتمدينة لم ترتجل حضارتها بدون أساس ، ولم تستأنف مدنيتها استئنافا مطلقاً ، فالعقل الإنسانى قابل للتطور والانتقال من حال إلى حال وهذا شأن أمتنا العربية. فحضارتنا القديمة لم تبدأ من الصفر ولم تقم بطريقةارتجالية ، فحين اتصل العرب بالأمم الأجنبية بعد الفتح وصلوا بين القديم والجديد ، وربطوا بين أسباب الماضى والحاضر — وطبيعة التطور الحضارى للبشرية تحتم افادة الخلف من جهود السلف — ثم كونوا حضارتهم العربية الإسلامية التى فقدت دول الشرق والغرب .

والمعروف أن العرب اتصلوا قبل الإسلام بغيرهم من الأمم اتصالا تجارياً

وسياسياً لكن الإسلام دفع العرب دفعا قويا إلى التفوق وإلى الحضارة الزاهرة ، بل إن الإسلام نفسه كان الطريق الوحيد لنشر التراث اليونانى ، والحضارات القديمة بين الشرق والغرب ، وحين غلبت الدولة العربية على أمرها ، وحصرت الحضارة العربية فى بعض المدارس والمساجد ، انقطع إنتاج العقل العربى ووقف نموه . ولهذا إذا أردنا الاستمرار لحضارتنا العربية الإسلامية، وجب علينا الاهتمام بإحياء تراثنا القديم،العربى الإسلامى بالإضافة إلى الأخذ بأسباب المدنية المعاصرة كما فعل أسلافنا العرب تجاه التراث القديم وحضارات البلاد المفتوحة .

ولن تكتمل نهضتنا العربية إلا بعد أن تصبح اللغة العربية لغة العلم ولغة التدريس فى جميع جامعاتنا ومعاهدنا . إن تاريخنا القريب يشهد بأن الغربيين حين اتجهوا نحو الحضارة العربية ، أخذوا المئات من المصطلحات والألفاظ العربية وأضافوها إلى لغاتهم الأوربية بل إن اللغة العربية إبان نهضة أوربا كانت لغة العلم والثقافة فيها .

وفى عصرنا الحاضر يقبل علماء أوربا وأمريكا على دراسة حضارتنا العربية الإسلامية وأصول تراثنا بحرص كبير واهتمام عظيم لايدركه إلا من يزور المعاهد العلمية فى أوربا وأمريكا ويرى اهتمام العلماء بدراسة اللغة العربية والتراث العربى الإسلامى فضلا عن بحوثهم ومؤلفاتهم واهتماماتهم فى هذا الميـــدان .

والحق أن الغربيين لايعتبرون تراثنا إرثا خلفه الإسلام ، بل يعتبرونه معينا ومنهلا .

وقد آن الأوان لنا — بعد أن أطلنا النوم — أن نستيقظ يقظة الأصحاء الأقوياء القادرين على بعث نهضتهم ووحدتهم العربية . لقد حان الوقت لنتعاون جميعا فى ميادين العلوم والفنون والفلسفة والآداب دون أن نفقد قوميتنا وشخصياتنا الوطنية وحرياتنا ، ودون أن نتخلف عن السير فى ركب المدنية والحضارة .

وقد اخترت لبحثى جانبا من جوانب إحياء نهضتنا العربية وهو الاهتمام بمصادر التراث العربى .

المعروف أن مصادر التراث العربى الإسلامى كثيرة ووفيرة ومتنوعة ، وقد ذكرت أنه بالرغم من عناية المستشرقين وعلماء الغرب بهذه الأصول والمصادر واهتمامهم بها إلا أن هذه الأصول والمصادر مازالت تحتاج إلى إلى العديد من الدراسات . ومازال الكثير من مصادر تراثنا العربى يحتاج إلى من يلقى عليه الضوء . وحرى بنا — نحن العرب — أن ننظر إلى الأمر بمزيد من الجدية ، حتى نساهم فى نهضتنا العربية الحديثة ، سواء بنشر هذا التراث أو بالدراسات العلمية القائمة على هذا التراث .

ولن يتأتى لنا ذلك إلا بالمجهودات العلمية المتكاتفة من المؤرخين وغيرهم من العلماء فى سائر العلوم والفنون والآداب .

أما من ناحية الدراسات التاريخية فيجب أن تكون جامعاتنا العربية والإسلامية أكبر الجامعات التى تعنى بدراسة حضارة المسلمين وتاريخهم كما يجب أن تقوى الصلات وتزداد بين الجامعات العربية ، والهيئات العلمية ، والجمعيات التاريخية ودور الكتب والوثائق القومية ، والأساتذة الذين يشرفون على الرسائل والبحوث العلمية المختلفة فى وطننا العربى ، وذلك لإحياء تراثنا الغنى الوفير .

وهنا أحب أن أشير إلى أن بعض الدارسين للتاريخ العربى الإسلامى لايفطنون إلى أهمية تاريخ الحضارة فى بحوثهم . والواقع أن التاريخ السياسى وتاريخ الحضارة لازمان معا لفهم ماضى العرب وتراثهم كما هو لازم لفهم ماضى أى أمة فهما صحيحاً يبرر دراسة الماضى للاستعانة به فى فهم الحاضر وإعداد العدة للمستقبل هذا بالإضافة إلى حاجتنا الشديدة لإحياء تراثنا وتطويره حتى يلائم عصرنا الحاضر . ومما يجدر ذكره أن دراسة المجتمع الإسلامى ونظمه الاقتصادية والاجتماعية ونواحى تقدمه فى العلوم والآداب والفنون لم تكن مجهولة عند المؤلفين المسلمين فى العصور الوسطى ،

فإننا نجد قسطا كبيراً منها ، ولكننا لانظفر بها مجموعة أومركزة عند طائفة معينة منهم ، إذ أننا نعبر عليها فى كتب التاريخ والأدب والطبقات والفقه وكتب الخطط والرحلات وتقويم البلدان . ولهذا لابد للمشتغلين بتاريخ العرب وتراث المسلمين أن يعنوا بمختلف أنواع الكتب العربية القديمة التى تكمل كتب التاريخ وهى كتب الخطط ، وكتب التراجم ، وكتب الطبقات ، وكتب الجغرافية أو تقويم البلدان ، ومن الكتب التى يجب أن يهتم بها الباحثون كتب الرحلات . والمعروف أن المسلمين نشطوا فى العصور الوسطى فى ميدان الرحلات والاستكشافات الجغرافية . وكان من البواعث التى دفعت المسلمين إلى القيام برحلات طويلة روابط الدين واللغة والثقافة التى كانت تجمع بين المسلمين فى أطراف دولتهم الكبرى ، فضلا عن الرحلة فى طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج ، واتساع نطاق التجارة وانتشار قوافل التجار المسلمين فى القسم الأعظم من العالم المعروف فى ذلك العهد .

وكتب المؤلفون العرب كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين الثالث الهجرى والتاسع الهجرى (التاسع الميلادى والخامس عشر بعد الميلاد) ولكنهم لم يكتبوا رحلاتهم فى مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرا ، أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو الجغرافية .

وليس من شك فى أننا نستطيع أن نستنبط الكثير من الحقائق التاريخية من هذه الكتب . ومن كتب الرحلات الهامة ، رحلة سليمان التاجر العربى فى الهند والصين ، والرحلات التى طبعها وترجمها إلى الفرنسية المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى .

ومن الرحلات الهامة أيضاً رحلة ابن فضلان الذى أنفذه الخليفة العباسى المقتدر بالله فى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١م) إلى البلغار بإقليم الفولجا وذلك بعد أن أسلم ملكهم وكتب إلى الخليفة يسأله (أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين

ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى أنحاء بلده وأقطار مملكته ويسأله ، بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له) .

والمعروف أن شعب البلغار أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين أقدمهما التى زارها ابن فضلان وانتشر فيها الإسلام فى حوض الفولجا الأوسط (أونهر اتل كما تسميه المصادر العربية) والأخرى فى حوض الطونة أو الدانوب .

ونشرت رحلة ابن فضلان لأول مرة بعناية المستشرق الألمانى فرهن Fraehn فى سنت بطرسبورج (لينجراد) فى روسيا ١٨٢٣م بعنوان (رسالة ابن فضلان فى الروس) . وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمة ألمانية وأضاف إليها المستشرق فرهن ما وجده فى كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة .

وأفاد من هذه الرسالة المستشرق الروسى بارتولد فى المقال الذى كتبه عن البلغار فى دائرة المعارف الإسلامية .

ومن الرحلات المشهورة رحلة ناصر خسرو الفارسى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) الذى قام برحلات طويلة فى الشرق الأدنى .

ومن الرحالة المشهورين فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ابن جبير الأندلسى الذى قام بثلاث رحلات من المغرب إلى المشرق زار خلالها مصر والعراق والحجاز وبلدان المشرق والمغرب وصقلية وجزائر البليار وسردانية . ومن الرحلات المشهورة كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وهو وصف رحلة قام بها إلى مصر طبيب عراقى اسمه عبد اللطيف — البغدادى وكتب فيها عن وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) .

ويمتاز وصف رحلته بالدقة والتعرض لمختلف الشئون العمرانية والاجتماعية . وقد سجل البغدادى رأيا فى الآثار يدل على أن قيمة الآثار لم تكن غريبة

على المسلمين فى العصور الوسطى فقال «ومازالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداء لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها، لتبقى تاريخا يتنبه به على الأحقاب ، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك ، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه» .

ومن أعظم الرحالة المسلمين ابن بطوطة وهو من أكثر الرحالة طوافا فى الآفاق وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى البلاد التى تجول فيها . وبدأ ابن بطوطة رحلاته من وطنه فى طنجة فى القرن الثامن الهجرى ٧٢٥هـ الرابع عشر الميلادى ١٣٢٥م ، وبعد رحلة استمرت أكثر من ربع قرن اختار ابن بطوطة الاستقرار فى ديار مولاه السلطان أبو عنان المرينى فى فاس .

واذا كنا نتحدث عن ضرورة الاستفادة من كتب الرحلات فإنه ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا ما يمكن أن نفيده من رحلات الأوربيين فى العالم العربى الإسلامى مثل ماركوبولو ، ونيبهر Niebuhr ، وفون مـلتزان Von Maltzan وبوكوك Pococke ، وبترمان Petermann والفاريز Alvarez وباومجارتن Baumgarten ، ودوتى Doutté وسنوك هرجرونيه Snouck Hurgronje ، وتافرنييه Tavernier ، وتيفنو Thevenot وتورنفرت Tournefort وغيرهم .

ومن المصادر التى يجب أن نأخذها بعين الاعتبار القصص الشعبية وكتب الأدب .

أما القصص الشعبية فلا يمكن أن نتجاهلها كمصدر من مصادر تراثنا ولكن استنباط الحقائق التاريخية منها يجب أن يكون بحذر كبير ، وذلك لأنها اعتمدت فى البداية على الرواية الشفوية فحسب ولم تسجل إلا فى عصور

متأخرة ، فضلا عن أن هدف هذه القصص كان المفاخرة وتسلية السامعين وكسب إعجابهم بمواقف الأبطال وسائر المواقف المثيرة فى القصص .

أما الكتب الأدبية القديمة فهى معين لاينضب للحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى ولا سيما من نواحى الذوق والعادات والمقاييس الخلقية والمثل العليا ومستوى المعيشة والأعياد وأساليب التسلية وأحوال المدن وغير ذلك من النواحى الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن أننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسى . وتراثنا العربى غنى بالكتب والموسوعات الأدبية المطبوعة والمخطوطة .

ومن تراثنا العربى الذى يجب أن نهتم به اهتماما كبيراً كتب الفقه . والفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس والإجماع . والحق أنه لابد لنا من فهم الإسلام كما فهم فى العصر الذهبى للمسلمين ، ولابد للمجتمع العربى الإسلامى المعاصر أن يستند الآن عن الدراسات العلمية الجادة فى شتى نواحى الحياة بعد أن وصل العالم المعاصر إلى ما وصل إليه من التطور. والانتفاع بمزايا العلم ليس معناه أن نضحى بالقيم الروحية والدينية ، وهذا الأمر ليس جديداً على العرب أو الإسلام، فقد بدأ ذلك حين واجه الإسلام علم الإغريق وفلسفتهم وعلوم وحضارات الأمم التى سيطروا عليها أو اتصلوا بها .

وكان الفقهاء يتجهون فى بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب ، وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالإشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية وإلى الأخلاق ، والعادات وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب .

والواقع أن ماكتبه الفقهاء عن هذه البدع وما نقرأه من مؤلفاتهم من الفتاوى فى القضايا والحالات المعينة التى يطلب إليهم الفتيا فيها من قبل أولى الأمر والأمراء يعتبر مصدرا ثمينا للمعلومات عن الأحوال التى كان المسلمون

يعيشون فيها والمشكلات التى كانت تطرأ فى حياتهم والعادات التى كانت تنتشر بينهم .

ومع أن كتب الفقه تعتبر من المصادر الرئيسية للمؤرخ العربى فضلا عن أنه لابد من الاهتمام بها فى عالمنا العربى المعاصر ، إلا أنه ينبغى على المؤرخ أن يكون حذرا فيما يستنبطه من كتب الفقه ، فإن ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظريا وبعيدا عن الواقع كما أن الدراسات الفقهية لبعض النظم ليست شاملة جامعـــة .

ومن مصادر التراث العربى التى لاغنى عن دراستها دراسة علمية ، كتب الحسبة والحق أن الدراسة العلمية للحسبة فى الإسلام تعكس إحدى الصور المشرقة لحضارتنا العربية فهى تبين مدى اهتمام أولى الأمر بالإشراف على جميع أنشطة الناس فى حياتهم الدينية والاجتماعية والصحية والاقتصادية .

ومن مصادر تراثنا التى لابد لنا أن نعطيه حقه من الاهتمام علم الآثار الإسلامية العربية .

ولابد لمؤرخ التاريخ الإسلامى أن يكون له إلمام بالآثار الإسلامية ، أو يحسن — على الأقل — استخدام النتائج العلمية التى وصل إليها علماء الآثار الإسلامية وحسبنا أن نذكر أن أعلام المؤرخين للتاريخ الإسلامى من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر كانوا من علماء الآثار الإسلامية مثل مرجليوث ، وتوماس أرنولد ، ولين بول ، ولوسترنج من الإنجليز ، وبيكر ، وكالة من الألمان ، وبلوشيه ، وسوفاجيه ، وفيث ، وچورج ماسيه ، وليفى بروفنسال من الفرنسيين .

ولاشك أن ربط الآثار مع كتابات القدماء تساعد فى تأييد أقوال المؤرخين أو إثبات أخطائهم ، فضلا عن أن الأدلة المادية قد تكشف لنا فى كثير من الأحيان عن حقائق لاتعرض لها كتب الأدب والتاريخ .

أما الدراسات المختلفة التى تؤلف علم الآثار الإسلامية والتى يجب أن نستخدمها لدراسة تاريخنا العربى والإفادة من هذه الدراسة فهى:

١ ــ دراسة الوثائق والأوراق البردية .

٢ ــ دراسات الكتابات التاريخية الأثرية على العمائر والتحف وشواهد القبـــور .

٣ ــ دراسة السكة أو النميات .

٤ ــ دراسة العمارة والفنون الإسلامية .

والحق أن المستشرقين يعنون عناية وافرة بدراسة هذه الأدلة المادية ، أو بجمعها وتنظيمها والتعليق عليها ، وذلك لما لها من شأن خطير وفائدة جليلة فى دراسة الحضارة والمدنية الإسلامية وتطور الحياة العقلية والسياسية والأدبية للأمم العربية الإسلامية .

ونلاحظ أن معظم الوثائق الورقية التى حفظت فى ديار الإسلام قبل العصر التركى هى وثائق الوقف ، ومعظم هذه الوثائق محفوظ بين وثائق المحاكم والحكومات أو وزارات الأوقاف والبطركيات أودور الكتب والوثائق القومية .

أما العقود التى كان يحررها الواقفون ،والتى وصل إلينا منها عدد كبير جدا فهى تضم وصف العقار وأهداف الواقف وأموال كثيرة نستنبط منها معلومات كثيرة عن المجتمع وعن حياة الناس اليومية ومعاملاتهم وعن المصطلحات المعمارية والقانونية والإدارية وعن تربية الأيتام والنشىء وعن البيمارستانات وعن علم الطب والأطباء وعن العناية بالكتب والمكتبات إلخ..

وقد ذاع نظام الوقف فى العصور الوسطى وأقبل الناس عليه إما بدافع من التقوى للقيام بالمشروعات الخيرية كبناء المساجد والمدارس والبيمارستانات والسقايات والمكتبات العلمية الكبيرة ، وضمان الإنفاق على صيانتها بعد وفاة

المؤسس ، وإما للحيلولة دون تجزئة الثروة بسبب الإرث ، إذ يصبح العقار سليما يمكن استغلاله بإشراف ناظر الوقف ، ويوزع الدخل على ذرية الواقف .

ونلاحظ أن بعض المؤرخين والكتاب المسلمين فى العصور الوسطى نقلوا صور وثائق حكومية فى مؤلفاتهم . ومع أننا قد نفيد من هذه الصور فى استنباط كثير من البيانات (انظر حميد الله الحيدربادى : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة — القاهرة ١٩٤١ م ، وجمال الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨ م) ، إلا أن مثل هذه الفائدة ، محدودة لسببين رئيسيين :

الأولى : إننا لانستطيع أن نجزم بصحة هذه الصور فقد تكون منقولة عن كتب أقدم وليست عن الوثائق الأصلية نفسها ، وقد تكون موضوعية أو منتحلة لتأييد وجهة نظر خاصة ، فضلا عن أن نقلها على يد الكتاب من جيل إلى جيل قد يكون سببا لإدخال كثير من التحريف والتصحيف والحذف والإضافة وما إليها أما السبب الثانى فهو أن هذه الصور المنقولة عن الوثائق الأصلية قليلة التنوع فلا تكاد تتجاوز بعض المراسلات والخطب والمخالفات. وعلى رأس المؤلفين العرب الذين نجد فى مؤلفاتهم عددا كبيراً من مثل هذه الوثائق المنقولة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا .

أما الأوراق البردية فإن كثيرين من مؤرخى التاريخ العربى الإسلامى لايهتمون بدراستها فضلا عن أن كثيرين لايعرفون أى شىء عن علم قراءة الأوراق البردية .

ويعتبر المستشرق النمسوى الأستاذ آدولف جرومان A. Grohmann الحجة فى دراسة الأوراق البردية إذ وقف جزءاً كبيراً من جهوده العلمية على درس أوراق البردى ونشر أبحاثا وكتبا كثيرة عنها .

وأصدرت له دار الكتب المصرية فى القاهرة مؤلفا فى ستة أجزاء

ترجم الأستاذ المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن جزءاً منه، والباقى ترجمة الدكتور عبد العزيز الدالى .

كذلك كتب كارا بتشك Karabachek وجزومان عن أوراق البردى المحفوظة فى مجموعة الأرشيدوق راينر Rainer بالمكتبة الأهلية فى ڤيينا .

وكتب مارجليوث سفرا ضخماً عما فى مكتبة چون رايلاندز بمدينة مانشستر فى انجلترا . وكتب المستشرق الألمانى بيكر Becker عن الأوراق البردية فى مجموعة شوت راينهارد Schott-Reinhardt وكتب أيضاً عن مجموعة أفروديت (أفرديتو أوأفروديت الاسم اليونانى لقرية كوم اشقاو فى صعيد مصر والتى كانت تعرف فى العصر الإسلامى باسم اشقوه ، فى المتحف البريطانى والتى كتب عنها أيضاً بل H.J. Bell وكروم W.E. Crum كذلك نشر كثير من الأوراق البردية على يد هوفمير Hofmeier ودى ساسى De Sacy وماسبيرو Maspero وأبوت N. Abbot ويمكن للمؤرخ أن يعرف مثل هذه البحوث والمقالات وذلك بالبحث ، والاستقصاء فى فهارس دور الكتب.

والواقع أن الأوراق البردية لها شأن كبير فى دراسة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى العصر العربى الزاهر ، إذ أن من بينها نصوصا تتعلق بالجزية والخراج ، وإسناد المناصب ، وأنظمة الإدارة ، وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد، وإنشاء الأساطيل ، وأثمان البضائع والبيوت والأراضى الزراعية ، فضلا عن عقود الزواج ، والبيع والشراء ، وما إلى ذلك من المكاتبات .

والحق أن هذه الأوراق فضلا عن قيمتها التاريخية بوصفها من المراجع الأصيلة فهى تمتاز بأنها معاصرة للحوادث التى تسجلها ومحايدة ، كما أنها

تصلح بعض النقص الذى يسببه تحيز بعض المؤرخين المسلمين لتاريخ الأسرة التى يكتبون فى ظلها ، أو تعصبهم لمذهبها ، كما أنها تسد فراغا كبيراً فى بيان النظم الإدارية والمالية وأحوال المجتمع .

كذلك يجب أن يهتم مؤرخو التاريخ العربى بالنقوش الكتابية التاريخية الأثرية فهى كتابات محايدة فى معظم الأحيان ومعاصرة للأحداث التى تسجلها، ولم تتغير من ناقل إلى ناقل أومن راو إلى راو . وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجد وفى التحف الأثرية وعلى شواهد القبور وفى الأضرحة والتكايا، والمنازل وسائر العمائر وعلى المنسوجات . وقد وصل إلينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة . والمعروف أن العرب أقبلوا على الكتابة إلى حد كبير كالفراعنة القدماء، وذلك لأنهم اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية . ومن باب الحق أن نقول أن الكتابات الأثرية الإسلامية لاتضاهى فى قيمتها التاريخية الكتابات الأثرية الفرعونية والسبأية واليونانية واللاتينية وذلك لأن الكتابات فى التاريخ القديم لها شأن عظيم بالنسبة إلى قلة المصادر المدونة .

أما الكتابات الأثرية الإسلامية فإنها ليست إلا مصدرا تقف إلى جانبه مئات الكتب التاريخية والأدبية وغيرها مما سبق أن أشرنا إليه والتى تعتبر من المصادر الأساسية فى دراسة تاريخنا العربى الإسلامى .

ونلاحظ كذلك أن الكتابات التاريخية العربية ينقصها التنوع ، ويكثر فيها التكرار ، ويغلب عليها كتابة آيات القرآن الكريم والترحم على الموتى أو كتابة الأدعية المختلفة لصاحب التحفة ، أو لمشيدى المساجد والمدارس والسبل والعمائر أو الإشادة بذكر الخليفة أو السلطان أو الأمير مع بيان ألقابه . هذا بالإضافة إلى أن ما وصل إلينا من الكتابات التاريخية الإسلامية العربية فى بعض أقاليم الدولة العربية نادر بحيث لايستطيع هذا المصدر أن يفيدنا كثيراً فى دراسة تلك الأقاليم . وبرغم كل ما ذكرناه عن الكتابات التاريخية

الأثرية فان ذلك لاينقص القيمة التاريخية لها بوصفها مصدرا من المصادر الأصلية فى دراسة التاريخ العربى، وتمتاز الكتابات التاريخية بأن تواريخها صحيحة ، كما يقل التحريف والتصحيف فى الأسماء المختلفة فضلا عن أنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين وتلقى ضوءاً فى بعض الأحيان على الإدارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والاقتصادية . كذلك تحدد هذه الكتابات تاريخ التحف والعمائر فتسدى أجل خدمة لتاريخ الفن وعلم الآثار بوجه عام .

والطريقة المثلى فى الإفادة من النقوش الكتابية الأثرية هى الموازنة بين نصوصها وبين الحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية ، وإظهار ما يمكن استنباطه منها مؤيدا للحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية أومخالفا لها . وعلى رأس من قاموا بمثل هذه الدراسات الفنية المستشرق السويسرى ماكس فان برشم Max Van Berchem الذى يعتبر بحق رائد المشتغلين بعلم الكتابات الأثرية الإسلامية .

ويعتبر « جامع الكتابات الأثرية العربية » Corpus Inscriptionum Arabicarum للمستشرق فان برشم وبعض زملائه وتلاميذه والسجل التاريخى للكتابات العربية Répertoire Chronologique d'Epigraphie للمستشرقين فييت G. Wiet وكومب Et. Combe وسوفاجيه J. Sauvaget وبعض المشتغلين بالآثار الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، من المصادر الخطيرة الشأن بما تشتمل عليه من كتابات تاريخية تكشف عن كثير فى حياة بناة العمائر وأصحاب التحف وفى تطور الأنظمة والعادات والأحداث السياسية والعلاقات التجارية وغير ذلك فضلا عن أنها تكشف عن أسماء بعض المهندسين والصناع الفنيين.

ومن المصادر المادية الهامة التى تكشف عن تراثنا العربى علم النميات أو النقود أو السكة .

وكان ضرب النقود فى ديار الإسلام من اختصاص رئيس الجماعة

السياسية من خليفة أو سلطان أو أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام . ودراسة السكة من الدراسات التى يفيد منها تاريخنا العربى أكبر فائدة ولاسيما التاريخ السياسى . وتشتمل الكتابات المنقوشة على السكة على ألقاب الأمراء والحكام وتاريخ الضرب وبعض عبارات خاصة بمذهبهم الدينى ، فهى بذلك سجل للألقاب والأسماء ، كما أنها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ومدى هذا الاستقلال . وعلاوة على هذا كله فإن السكة الإسلامية تخلد أسماء مدن كانت تضم دورا لضرب النقود ، مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إدارى كبير .

كذلك يشير العثور على كميات من السكة الإسلامية فى كثير من الأحيان إلى الآفاق البعيدة التى امتدت إليها التجارة الإسلامية ، كما يشير فى الوقت نفسه إلى أنواع السكة التى كان الإقبال عليها عظيما . وحسبنا ذلك العدد الوفير من السكة الإسلامية التى عثر عليها الباحثون والمنقبون فى شبه جزيرة اسكندناوة وسهول روسيا وبلاد الصين وأواسط إفريقية وبعض جزر المحيطات الهندى والهادى والأطلسى ، وغيرها من أصقاع العالم لنستنتج مدى عظم نشاط العرب فى التجارة والرحلات .

والحق أن العرب إبان حضارتهم الزاهرة فى العصور الوسطى نشطوا فى الرحلة وطلب العلم والتجارة فى مختلف البلدان الإسلامية وفى غيرها من البلدان والأصقاع التى لم يسمع الأوربيون بوجودها فى العصور الوسطى أو شكوا فى وجودها .

وجدير بالذكر أن دراسة السكة الإسلامية ترتبط ببعض المسائل الشرعية مثل الزكاة والدية والصداق . والمعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقر العملة الذهبية والفضية الموجودة فى عهده .

ويتضح لنا من دراسة النصوص القديمة أن سعر الدينار أو المثقال كان يساوى عشرة دراهم فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد الخلفاء

الراشدين، ولم يكن الدرهم جزءاً من الدينار وإنما كان هذا نقداً على أساس الفضة وذاك نقداً على أساس الذهب ولكل من النقدين وحداته .

وطبيعى أن ثمن الدينار والدرهم — إذا اعتبرناهما بالوزن وسلعة ذهبية أو فضية — قد تغير منذ فجر الإسلام إلى الآن ، كذلك فإن قيمة الدينار والدرهم قد تغيرت تغيراً كبيراً منذ فجر الإسلام إلى الآن، وذلك لتغير قوتهما الشرائية .

وقد عنى الغربيون كثيراً بما فى المتاحف والمكتبات والمجموعات الأثرية الخاصة من قطع العملة الإسلامية فصوروها ونشروا لها الفهارس العلمية : فكتب لافوسوا H. Lavoix عن النقود الإسلامية فى المكتبة الأهلية بباريس ، وكتب كاستليونى Castilliogni عن المحفوظ منها بمتحف ميلانو، وكتب فون فريهن Von Fraehn ، وماركوف A. de Markof عما فى متاحف سنت بطرسبورج (لينجراد) ، ونسلمان G.H.F. Nesselmann عما فى متحف العملة بمدينة كونجزبرج بألمانيا، وستانلى لين بول Lane-Poole عما فى المتحف البريطانى ودار الكتب المصرية . كما ألف هانس J. Hans ومولر J.H. Moeller وسوفير Sauvaire وبترا سفسكى J. Pietraszewski وارتين باشا ، وإسماعيل غالب ، وأحمد توحيد ونلسن رايت Wright ، وروجرز بك E.T. Rogers ومحمد مبارك ، وماوس Mauss وجونجفلايش Jungfleisch وغيرهم المؤلفات الوافية فى هذا الموضوع .

ولايفوتنا أن نذكر هنا الكتاب القيم الذى أخرجه العالم العراقى الأب أنستاس مارى الكرملى البغدادى سنة ١٩٣٩ م فى القاهرة وسماه « النقود العربية وعلم النميات » . ومن الكتب المفيدة فى النقود أيضاً كتاب « الدينار الإسلامى فى المتحف العراقى » تأليف ناصر السيد محمود النقشبندى ، وهو من مطبوعات المجمع العلمى العراقى فى بغداد سنة ١٩٥٣ م .

أما العمارة والفنون الإسلامية فإنها ذات شأن عظيم فى تاريخ المدنية العربية الإسلامية ذلك أن دراسة العمائر والتحف تلقى الضوء على كثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما تكشف عن مستوى المعيشة وازدهار الصناعة أو تدهورها ، كما تبين تطور العلاقات بين الأقاليم المختلفة فى ديار الإسلام ، وبينها وبين سائر أنحاء العالم . وإذا أردنا أن ندرس الأزياء والملابس والأسلحة والحلى فلا يكفى أن ندرس ما وصل إلينا من المنسوجات الأثرية والأسلحة والحلى القديمة لأن ماوصل إلينا منها قليل ، وإنما يجب أن ندرس الرسوم الآدمية فى الصور الموجودة فى المخطوطات وفى الرسوم الموجودة على التحف والرسوم المستقلة، ذلك أننا نخرج بأشياء كثيرة لانجدها فى الكتب أو لاتستطع الكتب التعبير عنها . كما أن دراسة الرتوك الإسلامية — أى الشارات التى كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم — على العمائر والتحف تكشف عن كثير من جوانب نظم الفروسية والإقطاع فى العصور الوسطى .

ولاشك أن عناية البلاد العربية الإسلامية بعمائرها وفنونها تساعد على حفظ تراثنا العريق ، كما أنها من مصادرنا الأصيلة ، فضلا عن أنها معين ومنهل غنى لحضارتنا العربية المعاصرة .

كذلك يجب على الباحثين فى تاريخنا العربى الإسلامى أن يكونوا على اتصال بالهيئات العلمية المختلفة للوقوف على الكتب والأبحاث المنشورة ، وللوقوف على ما يشغل ذهن الغربيين والمستشرقين وأساتذة التاريخ الإسلامى فى الشرق من المسائل والنظريات والحلول التى تراها كل مدرسة للمشاكل المعينة فضلا عن الأحكام التى ينشرها الأساتذة خاصة بالمراجع والأبحاث المختلفة ، وليتيسر للباحثين أن يعرفوا الأساتذة والباحثين الذين اختصوا بدراسة النواحى المختلفة فى التاريخ العربى الإسلامى .

والمعروف أن المستشرقين فى شتى البلاد الأوربية والأمريكية أنشأوا المجلات العلمية لنشر أبحاثهم وتسجيل نظرياتهم ويحتوى بعض هذه المجلات

على مقالات وأبحاث لها قيمة علمية كبيرة، وذلك لأن كتاب هذه الأبحاث أما أساتذة فى تخصصاتهم أو نوابغ الباحثين الناشئين . وقد ترشد هذه المقالات والأبحاث الممتازة جمهور الباحثين إلى كثير من المصادر ، كما أنها تمثل جهود علماء يوقفون جزءاً كبيراً من وقتهم لبحث إحدى المسائل التى تفوق فى أهميتها كثيراً من الكتب الضخمة .

ولاشك أن أكثر ما يكتبه المستشرقون دقيق ومنظم وعلى أساس المنهج العلمى السليم . أما عيوب التعصب فمن السهل على الباحثين إدراكها والتنبه إلى أن بعض هؤلاء المستشرقين يجحف فى تفسير بعض النصوص التاريخية ، أو يهمل مالايتفق ورأيه ، أو يغض الطرف أحيانا عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية أحكاما عامة . ومع ذلك فإنه من السهل على الأساتذة والباحثين إدراك عيوب التعصب والحذر من شرها . ومن باب الحق والإنصاف أن نقول إن الروح التى تسود المستشرقين اليوم فى الكتابة عن الإسلام وحضارة العرب ليست هى الروح التى كانت تسود أكثرهم فى الجيل الماضى ، ومن ثم فإنهم فى الجملة أكثر إنصافا الآن منهم فى الماضى .

وبعد، فإنه من الواجب على القائمين بدور الكتب فى البلاد العربية الإسلامية ضرورة عمل فهارس لها بطريقة علمية وتبادل هذه الفهارس لكى يعم النفع ويسهل الانتفاع بما تحتويه هذه الدور.

وقبل أن أختم بحثى أحب أن أنوه إلى أن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية يقوم منذ سنتين بإصدار نشرة بعنوان «أخبار التراث العربى» يحاول فيها التعريف بجوانب النشاط العلمى فى البلاد المختلفة التى تضم مخطوطات عربية وإسلامية، فضلا عن التعريف بالمجلات العلمية التى ترد إلى المعهد وأسماء بعض الباحثين وموضوعات أبحاثهم .